

## « إن من البيان لسحرا »

له ، ومعه غلام ، على عنقه مخللة فيها قيد البغلة ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فأجاب :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر أخذ الفزع من القاضي مأخذه ، فالتفت إلى وقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت آنفاً . فقال : وأى كهل أصيبت فيه قريش . ثم أراد المضي لشأنه . فقلت له : أندعه هكذا ؟ والله ما آمن عليه ، أن يتهور في بعض آبار العقيق وأنت ترى أنه في غيبوبة ، لا يدري من أمره شيئاً . فقال القاضي : صدقت .

قال الراوى : وكان محمد بن عمران التيمي ، كثير اللحم ، عظيم البطن ، صغير القدمين ، دقيق الساقين ، يشتد عليه المشى قد أطرق ملياً وكأنه تعاورته فكرتان ، فهور جل ثقال ، وهذا أبو السائب شيخ يخاف عليه السقوط في بئر من آبار العقيق ، فسا عثم أن قال : يا غلام قيد البغلة ، فأخذ القيد ، ووضع في رجل أبي السائب ، وأبو السائب ينشد البيت ، ويشير بيده إليه ، ليفهم عنه قصته ، ولكن القاضي كان في شغل عنه ، فهو يظهر أسأه مرة بنظرة شاردة وتارة بكلمة « وأى كهل أصيبت فيه قريش » . ولما انتهى من وضع القيد قال لغلامه : يا غلام احمله على بغلتي وألحقه بأهله .

انطلق به الغلام ، وأبو السائب لا يفتر عن إنشاد البيت وترديده ، ونحن نتبعهما النظر الكسير ، وتتناقل الحديث عن هذا الكهل . قال الراوى : فلما كانا بحيث علمت أنهما قد فاتا ، أخبرته بخبره ، وقصصت عليه قصته فقال لي القاضي : قبحك الله ماجنا ، فضحت شيخاً من شيوخ قريش ، انتهى إليه زهد وعلم ، وغررتني ، فهلا كشفت لي الأمر وهو على كئيب مني ؟ فقلت للقاضي :

( البقية على صفحة ١٩ )

مضى الهزيع الأول من الليل ، وقد انفضَّ السامر من مجلس أبي سعيد الخزومي فقيه قريش ، فنهض طالباً النوم فلم يجده ، وكان كلما آوى إلى مضجعه ، تجافى عنه جنبه ، لم يرَ بدأً من روحة في تلك الليلة القمرية ، يبدد بها ما حَيَّم على نفسه ، فأبعد النوم عنه . خرج أبو سعيد من منزله وقد استصحب معه أخاً له ، فاتخذوا طريقهما سرياً إلى العقيق ، حيث روعة الطبيعة ، ورهبة الليل ، يسريان عن نفس الفقيه .

قال الراوى : مضينا في طريقنا نتحدث ونتناشد ، فأنشدت أبا سعيد بيتين للرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأشقر  
فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر  
وكان هذا الخيال المبدع ، والمعنى السامى ، لقيا صفاء في النفس ، وإشراقاً في التفكير ، فوقعا في نفس أبي سعيد موقعاً لا مزيد عليه . فقال لصاحبه : أعدهما على ، فأعادها فقال أبو السائب : أحسن والله . امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته . قال الراوى : انطلقنا والشيخ في ذهوله ، وأنا أقلب الأمر على وجهيه . وكيف فعل هذا المعنى في نفس الفقيه ، وما زال شأننا في إطراق وتفكير ، حتى لقينا عبد الله بن حسن بن حسن . فلما صرنا إليه ، وقف فسلم ، فرددت التحية بأحسن منها . ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر  
فالتفت إلى عبد الله وقال : متى أنكرت صاحبك ؟  
فقلت : منذ الليلة . فقال : إنا لله ! أى كهل أصيبت فيه قريش . ثم مضى في سبيله ، ومضينا في سبيلنا ، والشيخ يهمهم بذلك الصوت همهمة ثم عن العجب والشوة ، حتى لقينا محمد بن عمران ، قاضى المدينة ، يريد مالاً له على بغلة